الإمارات الإسلامية شبه المستقلة في المشرق الإسلامي

تحدثنا سابقاً عن الامارتين الطاهرية والصفارية في المشرق الإسلامي التي انسلخت عن جسد الدولة العباسية وكانت تعترف بهذه الخلافة اسميا فقط، والان نتحدث عن الامارات الأخرى المتبقية في المشرق الإسلامي وعلى الشكل الاتي:

١- الامارة السامانية (٢٦١- ٣٨٩هـ)

الاسرة السامانية اسرة فارسية نبيلة كانت تدين بالديانة الزراد شتية أو المجوسية ، ثم أسلم جدهم سامان خدات أحد أشراف مدينة بلخ وسمى ابنه أسدا تيمنا باسم والي الأمويين على خراسان أسد بن عبد الله القسري الذي أسلم على يديه .

وأنجب أسد بن سامان أربعة أبناء ظهر أمرهم في أيام الخليفة المأمون الذي ولاهم سنة ٢٠٤ هـ على بعض الولايات في اقليم ما وراء نهر جيحون مثل سمرقند وفرغانة والشاش واشروسنه. وحينما اشتد خطر الصفاريين ، أصدر الخليفة المعتمد تقليده بتولية نصرين أحمد الساماني ولاية جميع بلاد ما وراء النهر سنة ٢٦١ هـ (٨٧٤ م) فكان هذا بداية الدولة السامانية التي اتخذت من مدينة بخاري عاصمة لها .

وخلف نصر على حكم هذه الولاية أخوه اسماعيل الذي انتصر على الصفاريين

وضم أراضيهم في خراسان وسجستان إلى ملكة كما استولى على اقليم طبرستان بعد أن انتصر على واليها محمد بن زيد العلوي .

ويلاحظ من الفتوحات السابقة أن السامانيين استجابوا مثل أسلافهم الصفاريين لنفس التيار القومي الفارسي فبسطوا سلطانهم غربا على البلاد الاسلامية في خراسان وطبرستان وسجستان ، الا أنهم في نفس الوقت توسعوا أيضا فيما وراء الحدود الاسلامية شرقا ، وجاهدوا الأتراك الوثنيين في أواسط آسيا ونشروا الاسلام بينهم ، فصارت تركستان سندا للاسلام بعد ان كانت مصدر خطر عليه .

كذلك حرصت الدولة السامانية على التمسك بطاعة الخلافة العباسية وكسب مودتها ورضاها . ولعل من مظاهر تلك العلاقات الودية زواج نوح بن منصور الساماني بأبنة عضد الدولة البويهي .

هذا، ويمتاز العصر الساماني بنهضة علمية وأدبية رائعة جعلت من مدينة بخاري العاصمة مركزا من أهم المراكز العلمية الاسلامية . ويرجع الفضل في ذلك إلى سياسة امراء السامانيين الذين عملوا على احياء اللغة الفارسية وترجمة امهات الكتب العربية إلى تلك اللغة ، كما شجعوا العلماء والأدباء والشعراء حتى عاش في كنفهم عدد كبير منهم أمثال الرودكي أول شاعر فارسي كبير بعد الاسلام، والطبيب أبي بكر محمد بن زكريا الرازي Razes المسمى بجالينوس العرب وكان صديقا للأمير منصور بن اسماعيل الساماني وألف له كتاب المنصوري في الطب كعربون لهذه الصداقة . والطبيب الفيلسوف ابن سينا Avicenne الذي ذهب إلى بخاري وعالج الأمير نوح بن نصر الساماني ، ومثل الوزير محمد بن عبد الله البلعمي الذي ترجم تاريخ الطبري إلى اللغة الفارسية سنة ٣٥٢ هـ بعد أن حذف منه التفاصيل المملة . وقد اشتهرت ترجمته ، وترجمت بدورها إلى لغات أخرى عديدة ، ومثل الشاعر الدقيقي الذي نظم لنوح بن نصر الساماني منظومة في ألف بيت عن تاريخ الفرس القديم ثم جاء بعده أبو القاسم الفردوسي فوضع ملحمته الشعرية الفارسية المشهورة الشاهنامة (كتاب الملوك) التي يعتبرها الايرانيون اليوم من مفاخرهم الأدبية لأنها تقص أخبار ملوك الفرس القدماء وقد انتقل الفردوسي بعد ذلك إلى خدمة الغزنويين وأهدى ملحمته للسلطان محمود الغزنوي الذي منحه ٦٠ ألف مثقال من الفضة على عدد أبياتها .

كذلك امتاز العصر الساماني بنهضة صناعية تتجلى بصورة واضحة في الصناعات الخزفية الجميلة التي اشتهرت بها مدينة طشقند ، وفي صناعة الورق التي أخذوها عن الصين وامتازت بها مدينة سمرقند أيام السامانيين وعنها انتشرت في بقية العالم الاسلامي . هذا إلى جانب صناعة السجاد والمنسوجات الحريرية [1] .

وثمة ظاهرة اخرى امتازت بها الدولة السامانية وهي اعتمادها على المماليك الأتراك في جيوشها رغم أصلها الفارسي . وقد شرح لنا الوزير نظام الملك الطوسي [2] في كتابه سياسة نامة (كتاب السياسة) النظام التربوي الذي أتبعه السامانيون في تربية مماليكهم الاتراك بقوله :

« ان مماليك السامانيين يرقون تدريجيا بناء على خدماتهم وشجاعتهم ، وليس اعتمادا على المحسوبية أو الجاه .

فالمملوك عند شرائه يخدم عاما على قدميه ، فيسير مرتديا قباء من القطن يسمى زنداجي [٣] بجوار سيده الممتطي صهوة جواده . وليس من المسموح له أن يركب الخيل اطلاقا في عامه الأول من الخدمة والاعوقب أشد العقاب . فاذا أتم المملوك عامه الأول أخبر عريف الدار بذلك حاجب الحجاب ، فيقدم

الحاجب للمملوك حصانا تركيا بعنان دون سرج ، ثم يمنح المملوك في العام الخامس من خدمته سرجا ولجاما مزينا بنجوم من المعدن ، وسروالا من القطن المخلوط بالحرير ، وبعض الأسلحة التي يحلقها في سرج فرسه . وفي العام السادس يمنح المملوك ملابس أفخر من ذي قبل . وفي العام السابع يمنح خباء ذا طنب واحد وستة عشر وتدا كما يمنح ثلاثة من الرقيق ليقوموا بخدمته . وعندئذ يستحق المملوك لقب عريف الدار ، ويضع على رأسه طاقية من الجوخ الاسود الموشاة بالفضة كما يرتدي قباء حريريا كنجويا [١] . ثم يأخذ المملوك بعد ذلك في الترقي عاما بعد عام ، وتزداد حاشيته تدريجيا إلى أن يصل إلى مرتبة صاحب الخيل ثم حاجب الحجاب .

ولا يأخذ المملوك لقب أمير ولا يتولى عملا كبيرا مثل القيام على ولاية من الولايات ، أو فرقة من الفرق العسكرية الا بعد أن ينضج ، وسن النضوج في العادة هو سن الخامسة والثلاثين » .

يلاحظ من هذا النص السابق أن السامانيين توسعوا في استخدام المماليك الأتراك ووضعوا لهم نظاما تربويا عسكريا اسلاميا يقوم على التدريج والترتيب في تنشئتهم كي يكتسبوا الخبرة اللازمة في مناصب الادارة والقيادة .

ويلاحظ كذلك أن هذا النظام التربوي السامانى كان الأساس الذي سار على منهاجه بعد ذلك عدد كبير من الدول الاسلامية مثل دولة السلاجقة الاتراك وأتباعها من الأتابكة والايوبيين الذين نقلوه إلى مصر والشام وتمخض عنه قيام دولة المماليك التي تبلور وازدهر فيها هذا النظام بشكل راسخ متين مكنها من صد الزحف المغولي شرقا ، والانتصار على المستعمر الصليبي غربا .

ولقد عاشت الدولة السامانية مائة وسبعين عاما ثم انتهت على أيدي الغزنويين من جهة خراسان ، والترك القرخانية أو ايلخانات تركستان من جهة بلاد ما وراء النهر وذلك في سنة ٣٨٩ هـ (٩٩٩ م) .

---

(١) نسبة إلى مدينة كنجة في اقليم شيروان على ساحل بحر قزوين بجمهورية اذربيجان الآن . وكانت مركزا لتجارة الحرير

٢- الإمارة الغزنوية (٣٥١- ٥٨٢هـ)

هي وليدة الدولة السامانية ، ومؤسس هذه الدولة مملوك من مماليك السامانيين الذين تدرجوا في الرقي إلى أن بلغوا مرتبة الامارة ، وهو الأمير البتكين الذي ولاه السامانيون في بادىء الأمر على خراسان ثم على ولاية غزنه في قلب جبال سليماني شمالي الهند . وهناك استطاع البتكين بفضل مماليكه الاتراك أن يقيم دولة مستقلة عن السامانيين الا من ناحية التبعية الاسمية وهي الدولة الغزنوية . سنة ٣٥١ هـ. وبعد وفاة البتكين ، آلت الامور إلى زوج ابنته ومملوكه ناصر الدين سبكتكين الذي حارب بأسم السامانيين في سهول الهند الشمالية وفتح بست وقصدار سنة ٣٦٨ هـ (٩٧٨ م) وهزم جيوش جيبال راجا لاهور وشتت شملهم على حدود البنجاب ثم ما لبث أن أسر جيبال نفسه ثم أطلق سراحه بعد أن تعهد بدفع الجزية . فسبكتيكين يعتبر المؤسس الحقيقي للدولة الغزنوية .

وجاء بعد سبكتكين ابنه محمود الغزنوي (٣٨٨ — ٤٢١ هـ — ٩٩٨ — ١٠٣٠ م) الذي بلغت الدولة أوجها في عهده ، اذ انه الغى اسم السامانيين من الخطبة في مملكته وخطب للخليفة العباسي القادر بالله الذي أنعم عليه بلقب يمين الدولة وأمين الملة . ويؤثر عن السلطان محمود الغزنوي أنه غزا بلاد الهند اثنتي عشرة مرة مدفوعا في ذلك بعامل الجهاد الديني والرغبة في نشر الاسلام بين الهنود الوثنيين . واستطاع بذلك أن يبسط نفوذه إلى ما وراء قشمير والبنجاب وأن يجعل من اقليم البنجاب ولاية اسلامية قاعدتها مدينة لاهور ويحكمها ولاة مسلمون من قبل الغزنوية . وهكذا تعتبر الدولة الغزنوية أول دولة اسلامية في الهند . ومن المعروف أن هذه الاقاليم الشمالية الهندية التي انتشر فيها الاسلام مثل السند والبنجاب والبنغال تكون ما يسمى الآن بدولة الباكستان الاسلامية .

ولقد سادت الثقافة الفارسية أيضا في عصر الغزنويين رغم أنهم أتراك حتى إنه يقال بأن اللغة الأردية التي هي لغة الهند والباكستان وهي مزيج من الفارسية

والسنسكريتية ، ظهرت على عهد محمود الغزنوي ، وصارت لغة الهند الاسلامية . هذا وقد سبقت الإشارة إلى الشاعر الإيراني الفردوسي أعظم شعراء الفرس الذي عاش في كنف هذه الدولة ونال جائزة السلطان محمود الغزنوي على ملحمته الخالدة « الشهنامه » . كذلك نذكر المؤرخ أبا نصر العتبي (ت ٤٢٨ هـ) الذي كتب تاريخا عن حياة محمود الغزنوي وجهاده إلى سنة ٤٠٩ هـ وسماه تاريخ اليميني (نسبة إلى لقبه يمين الدولة) وقد ألف هذا الكتاب باللغة العربية لأهل العراق لما رآه من كثرة كتابات الأدباء باللغة الفارسية عن السلطان محمود [١] . كذلك عاش تحت كنف الغزنويين في غزنة العالم المؤرخ أبو الريحان البيروني الخوارزمي (ت . ٤٤٠ هـ) الذي ألف عدة كتب بالعربية والفارسية نذكر منها كتاب القانون المسعودي الذي أهداه إلى السلطان مسعود بن محمود الغزنوي وكتابا في الأحجار الكريمة أهداه إلى السلطان مودود بن مسعود . هذا إلى جانب تاريخه المشهور « الآثار الباقية عن القرون الخالية » الذي تحدث فيه عن الجماعات والطوائف والشعوب القديمة مع ذكر أعيادها واحتفالاتها الدينية والقومية . وقد نشره وترجمه إلى الانجليزية ادوارد سخاو . [٢] وأخيرا وليس آخرا نشير إلى المؤرخ الفارسي أبا الفضل محمد بن حسين البيهقي (ت ٤٧٠ هـ) الذي كتب بالفارسية تاريخا للسلطان مسعود ووالده محمود الغزنوي ، عرف بتاريخ البيهقي . [٣] .

ولقد انتهت الدولة الغزنوية على أيدي قوتين وهما قوة الاتراك السلاجقة الذين استولوا على ممتلكاتها في خراسان ، وقوة الغوريين الذين قضوا على ملكها في الهند وأقاموا على أنقاضها ثاني دولة اسلامية هندية وهي الدولة الغورية [٤] .

---

(١) طبع تاريخ العتبي في القاهرة سنة ١٢٨٦ هـ في جزئين وبه شرح احمد المنيني (ت ١٢٧٢ هـ) المسمى الفتح الوهبي على تاريخ أبي نصر العتبي .

(٢) نشر النص العربي في ليبزج سنة ١٨٧٨ ، أما الترجمة الانجليزية فهي بعنوان :
The Chronology of Ancient Nations (London 1879)

(٣) نقله إلى العربية الدكتور يحي الخشاب ، مطبعة الانجلو سنة ١٩٥٦ .

(٤) سميت بالغورية نسبة إلى مكان نشأتها وهو جبال الغور بين هراة وغزنه .